المعتقدات الدينية فى العالم القديم

3
الفصل الثالث

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيد

ينطوى المعتقد الدينى عادة على عدد من الأفكار الواضحة والمباشرة، تعمل على رسم صورة ذهنية لعالم المقدسات؛ وتوضح الصلة بينه وبين عالم الإنسان. وغالباً ما تُصاغ هذه الأفكار فى شكل طقوس منظمة تعبر عن الخبرة الدينية المباشرة. لذلك، فالمعتقد الدينى هو أول أشكال التعبير عن هذه الخبرة التى خرجت من حيز الانفعال العاطفى إلى حيز التأمل الذهنى، كما يعبر المعتقد أيضاً عن روح الجماعة التى تعمل على صياغته؛ كما تعمل الأجيال المتلاحقة على صقله وتطويره. فما من خبر وصلنا عن أهل الديانات القديمة يفيد بأنهم أخذوا معتقداتهم جاهزة عن جهة ما أو شخص بعينه، فشعوب سومر وأكاد، مثلاً، وكنعان ومصر واليونان قد تركت لنا مدونات عن معتقداتها وأساطيرها وطقوسها، دون أن تذكر شيئاً عن صدور دياناتها عن كاهن أو عرَّاف. وأسفار الفيدا Veda [1] السنسكريتية الموغلة فى القدم، مازالت تمارس تأثيرها العميق على الطوائف الهندوسية فى الهند دون أن يعرف أحد مصادرها والتواريخ الدقيقة لتدوينها. ومعتقدات الشعوب البدائية فى استراليا وغيرها كانت دوماً موجودة بالنسبة لأهلها، ولا يجوز البحث عن بداية لها لأنها تعكس الحقائق الأزلية التى لا يصح مناقشتها. فإذا كان لابد من تصور بداية لهذه المعتقدات، فإن هذه البداية توضع فى الأزمنة الأسطورية الأولى أو الأزمنة المقدسة التى رافقت ظهور الجماعات البشرية الأولى [2].

وهذا يقودنا إلى إقرار حقيقة تاريخية هامة، وهى أن قيام مؤسسات دينية هى ظاهرة حديثة نسبياً، ذلك لأن المؤسسة الدينية هى بنية اجتماعية تعبر عن تاريخ الحضارة الإنسانية. فقد عاشت الجماعات البشرية وفقاً لمعتقداتها ومارست طقوسها وقصت أساطيرها لعشرات الألوف من السنين دون مؤسسة تشرف وتوجه وتجعل من نفسها السلطة المرجعية العليا. ومعلوماتنا لا تؤهلنا بالفعل لمتابعة هذه المسيرة الطويلة التى تمتد إلى ما وراء القرن السادس (ق.م). ففى النصف الأول من

القرن السادس (ق.م) عاش "زرادشت" وبشر بمعتقد جديد كل الجدة على الثقافة الإيرانية، وفى النصف الثانى من القرن نفسه ظهر "بوذا" فى الهند، و"لاوتسى" فى الصين. وليس من المصادفة أن يتزامن ظهور هؤلاء المفكرين فى الشرق مع ظهور نوع آخر من المفكرين فى الغرب، هم مؤسسو الفلسفات الفردية، فى المناطق ذات الطابع اليونانى فى غرب آسيا الصغرى؛ وفى أرض اليونان نفسها والجزر المتوسطة القريبة منها. ففى أواخر القرن السابع وأوائل القرن السادس (ق.م) ظهرت المدرسة الملطية فى آسيا الصغرى، وفى أواسط القرن السادس ظهر "فيثاغورس" و"هيرقليطس" و"زينوفان" و"بارميندس"، ومع "سقراط" دخلت الفلسفة اليونانية عهداً جديداً [3].

ومن هنا يمكن القول، أن المعتقد الدينى يعبر عن روح الجماعة، فلا يمكن أن يقوم أى فرد من أفراد الجماعة بصياغة معتقد خاص به؛ بما يستدعى ذلك من سلوك وأفعال سوف تتعارض حتماً مع ما يبادر به الآخرون. كما أن دوام واستمرار أى معتقد يتطلب إيمان عدد كبير من الأفراد به وإلا اندثر وفقد تأثيره حتى فى نفس صاحبه. وعلى هذا الأساس، نستطيع أن نفهم لماذا يسعى مؤسسو الأديان وأصحاب الفلسفات الكبرى إلى التبشير بأفكارهم بين الناس وحثهم على اعتناقها، ذلك لأنهم يجدون فى هذا السعى الضمان الوحيد لمعتقداتهم واستمرارها.

❊ ❊ ❊ ❊

مصر القديمة

إن الدراسة المتعمقة لديانات ومعتقدات قدماء المصريين – كما يرى بعض المؤرخين – كانت تتمحور حول الإيمان بإله واحد، موجود بذاته خفى، أبدى أزلى وكلى القدرة والمعرفة لا تدركه الأذهان، خالق للسماء والأرض وكل ما عليها؛ وخالق لكائنات روحانية كانت رسله ومساعديه فى تصريف شئون الكون وهى "الآلهة". وقد استمر الإيمان بهذه الألوهية غير المشخصة منذ بداية التاريخ المصرى حتى نهايته. ورغم ذلك لم يكن لها – فى العصور التاريخية – معابد أو هياكل، ولم تُصور فى أى هيئة شخصية؛ وإنما بقيت فى الأذهان والقلوب بمثابة قدرة كونية لا يحدها وصف أو قول. والاسم الذى أطلقوه على هذه الألوهية هو "نتر" Neter وكان يُرْمَز إليه بفأس ذى رأس حجرى ومقبض خشبى، وتحيط بالرأس أربطة جلدية أو قماشية لتثبيتها على المقبض. وقد صار هذا الرمز إشارة هيروغليفية للدلالة على مفهوم الألوهية فى الكتابة المصرية. ويبدو أن اختيار إنسان ما قبل التاريخ لرمز الفأس كان من قبيل التأكيد على جانب القوة الظاهرة فى هذه الأداة. ويدعم هذا الرأى أن كلمة "نتر" بالذات تعنى القوة أو الشدة، وإلى جانب هذه الكلمة لدينا فى اللغة الهيروغليفية المصرية كلمة "نترو" وتعنى تلك الكائنات التى تشترك على نحو ما فى طبيعة "نتر"، وتسمى فى العادة آلهة. ولكن حين ندرس هذه الآلهة عن قرب، نجد أنها ليست إلا صوراً أو تجليات لإله واحد. وكان أكبر هذه الآلهة الإله "رع" Ra، إله الشمس الذى كان الوجه المشخص لتلك الألوهية المختفية "نتر"؛ ورمزها الذى يتوجه إليه الناس بالعبادة (4).

وتوجد إشارات واضحة على هذه الألوهية التى تعلو على بقية التجليات القدسية المتعددة فى الديانة المصرية القديمة، ومن هذه الإشارات نصوص مبكرة للأسر الحاكمة الأولى؛ أى من عصر الأسرة الرابعة والخامسة .

منها: 1- أن أفعال الإله نتر خافية علينا.

2- عليك ألا تفزع إنساناً لأن فى ذلك خروج على أوامر الإله.

3- إن الخبز الذى تأكله من عطايا الإله .

4- إكف عائلتك حاجتها فهذا واجب عليك .

5- أن الإله يحب الطائعين ويمقت العصاة .

ويتضح من هذه النصوص أن المقصود من كلمة الإله "نتر" ليس الإشارة إلى إله واحد بعينه من الآلهة المصرية، وإنما الإشارة إلى الواحد الخفى الكلى القدرة والمعرفة. أما الآلهة الأخرى التى آمن بها المصريون إلى جانب هذا الإله الأعلى، فجميعها مخلوقة وعرضة للمرض وحتى الموت. أى أن هذه الآلهة رغم كونها من طينة مختلفة عن الإنسان وتفوقه قوة ومعرفة، إلا أنها تشبهه فى عواطفه وأهوائه؛ وتخضع مثلما يخضع لقوانين هذا العالم المخلوق .

ففى نص للملك "تحتمس" الثالث (حوالى 1450 ق.م) نقرأ دعاء يتمنى فيه الملك النجاة من الفناء المقدر على البشر وعلى الآلهة. وفى أحد نصوص كتاب "الموتى" نقرأ أن الآلهة تفنى مثل بقية الكائنات الحية عندما تغادرها الروح. معنى هذا، أن المصريين القدماء كانوا يفرقون بشكل واضح بين الإله "نتر" والآلهة "نترو" المخلوقة من قبله والتى تلعب دوراً أشبه بدور الملائكة الذين يقومون بوظائف ومهام محددة [5].

غير أن تصور المصريين لهذه الألوهية المطلقة، كان مصحوباً بنوع من التشخيص الذى يجعل الألوهية حاضرة بينهم وقريبة منهم. فقد كان لكل بلدة ومدينة إلهها الخاص الذى تعزو إليه كل صفات وخصائص الإله الواحد. ولكنهم لم يروا فى هذه الآلهة جميعاً سوى وجوهاً مختلفة لنفس الألوهية الواحدة. والدليل على ذلك أن المتوفى عندما يحضر إلى قاعة الحساب، عليه أن يتلو اعترافاته أمام اثنين وأربعين إلهاً، هم آلهة الأقاليم المصرية، وذلك قبل أن يمثل أمام الإله "أوزيريس" قاضى العالم الأسفل (على ما تنص عليه تعليمات كتاب الموتى). وهذا

يعنى، أن الإله نفسه كان يُعبد فى كل مدينة أو إقليم تحت أسماء وتجليات متنوعة، وأن الإله المحلى قد اتخذ مكانة الإله الأعلى لضرورات عملية. وبعبارة أخرى، فإن موضوع العبادة المحلية لم يكن إلا هيئة اختار الإله المطلق أن يتجلى فيها لوقت طال أم قصر، وعلى ما تقتضيه طبيعة الأحوال. فبعض هذه الآلهة - ولأسباب متعددة - خرج من دائرته الضيقة التى نشأت منها عبادته، واكتسب خصائص ووظائف وصلاحيات آلهة عديدة أخرى؛ ثم وصل إلى المرتبة العليا حيث صار تجسيداً للألوهية المطلقة على مستوى الثقافة بأكملها. ومن هؤلاء "تيم" Tem إله هليوبوليس، و"بتاح" Btah إله ممفيس، و"أمون" Amun إله طيبة [6].

ويطلق على الإله الخالق الأول فى عقيدة هليوبوليس اسم "أتوم" Atum ويعنى الذى أتم نفسه بنفسه أى أنه خلق نفسه ثم خلق العالم، ومن صفاته "ذلك الذى جاء للوجود من تلقاء ذاته". و"أتوم" خرج من عماء المياه الذى يسمى "نون" Nun (أى المحيط الذى خرجت منه جميع الكائنات) ثم ظهر فوق تل (أى التل المزدهر الذى ظهر فى أول العصور) وأنجب بغير زواج الإله "شو" Shu (أى الهواء) والإلهة "تفنت" Tefenet (أى الرطوبة) زوجة الإله "شو"، وكان إله الهواء هو الذى زج بنفسه بين آلهة السماء "نوت" Nut وزوجها إله الأرض "جب" Geb [7] وبذلك فصل السماء عن الأرض. وهنا تمثل المصريون الانجاب الطبيعى، ويصدق الشىء نفسه على أولاد الإله "جب" والإلهة "نوت" وهم "أوزيريس" و"إيزيس" و"ست" و"نفتيس" Nephthys رغم أن مغزاهم أو دورهم الكونى كان فى البداية أقل وضوحاً. وهذه الآلهة التسع تشكل ما يسمى "تاسوع هليوبوليس" [8].

وهناك أحد التراتيل المرفوعة إلى الإله الخالق الأول أتوم تقول :-

"أيها التاسوع العظيم الكائن فى هليوبوليس، أنت على القمة ومعك "شو" و"تفنت" و"نوت" و"جب" و"أوزيريس" و"إيزيس" و"ست" و"نفتيس"، أنك الوجود ذاته" [9].

واتحد الإله الخالق الأول مع "رع" الذى ظهر فى الأفق عند بدء الخليقة فى هيئة قرص الشمس، والإله "رع" ليس إلا الرمز المنظور – كما سبق القول – للألوهية المحتجبة.

اخناتون

كان تأثير عبادة الشمس على المعتقدات المصرية أمراً واضحاً للعيان اشتد فى الدولة الحديثة، فعندما أشار "رخمى" وزير "تحتمس" الثالث إلى علاقته الوثيقة بسيده قال:

"رأيت شخصه فى شكله الحقيقى "رع" إله السماء ملك مصر العليا والسفلى حين يشرق، و "أتون" حينما يكشف عن نفسه".

ونستدل من النص على أن "أتون" هو الاسم الذى يعبر عن قرص الشمس وكان مستخدماً منذ فترة طويلة (وكانت هذه العبادة تقوم إلى جانب العبادات التقليدية الأخرى) حتى أن بعض الملوك عندما ماتوا قيل أنهم رحلوا إلى السماء واتحدوا مع "أتون" (10).

أما فى عهد "أمنحوتب" Amenhotep الرابع الذى حكم مصر فيما بين 1369 – 1353 (ق.م)، ازداد الاهتمام بعبادة الإله أتون الذى يتبدى فى عالم الظواهر بقرص الشمس مصدر الحياة والحركة. وبنى "أمنحوتب" أول معبد لـ"أتون" فى العاصمة "طيبة"، وتظهر بقايا الكتابات التى وُجدت على أحجار هذا المعبد – الذى هدمه الخصوم – بعض أسماء الآلهة المصرية التقليدية، كما أنها تشير إلى الفرعون باسمه الرسمى "أمنحوتب" الرابع لا باسم "أخناتون" الذى اختاره لنفسه فيما بعد، ولا باللقب الذى لازمه بعد ذلك وهو "الذى يعيش فى الحقيقة"، ولكنه دخل – بسبب معتقده الجديد – فى صراع حياة أو موت مع كل التقاليد الموروثة من قبل. فبعد إكتمال معبد طيبة بوقت قصير، غير الفرعون اسم المدينة من "طيبة" إلى مدينة "أتون" وأعلن صراحة إيمانه بالإله الواحد وحاول نشر معتقده

هذا فى مصر بأكملها، كما غير اسمه إلى "أخن أتون" أى "فرح اتون" ثم قام بمحو ذكرى العبادات القديمة فأغلق معابد الإله الأعلى "أمون – رع" كما أغلق معابد بقية الآلهة وحطم تماثيلها ومحا اسماءها وصورها. وبلغ به الحماس حداً دفعه إلى فتح مقبرة أبيه "أمنحوتب الثالث" حيث محا اسم الإله "أمون – رع" من هناك وأزال صوره وغير اسم أبيه فى منقوشات المقبرة [11]. وبدأ كتابة عبارات جديدة تعبر عن عبادة الإله أتون يقول :

"أتون الإله العظيم الحى إله السماء وإله الأرض
واهب النور والحياة للبشر هو الإله الذى يحيا فى
الحقيقة، وبه يحيا الآلهة الواحد الذى صنع كل ما
ظهر فى البدايات الأولى" .

إن مثل هذا المعتقد الذى يقوم على وحدة الخالق وعلى المحبة التى تجمع بينه وبين المخلوقات وما ينتج عن ذلك من إحساس بأخوة البشر وصلتهم الحميمة ببقية أشكال الحياة على الأرض، لا يمكن أن يبقى فى إطار العبادة الإقليمية الضيقة بل لابد من التبشير به فى كل مكان [12].

ومن هذا المنطلق، يمكن القول إن الإشارة إلى الإله الخالق أو إلى "أتون" أو أى إله آخر بصفة الواحد هو تقليد قديم. وهذا ما دعى بعض المؤرخين إلى القول بأن الدين المصرى القديم يقوم على معتقد توحيدى يعبر عن نفسه خارجياً بصيغ شركية تعددية، بينما قادت التعددية الظاهرة فى النصوص المصرية آخرين إلى القول بأن الديانة المصرية قد قامت فى الأصل على معتقد شركى تعددى ثم اقتربت تدريجياً من المفاهيم التوحيدية .

* * * *

obeikandl.com

بلاد ما بين النهرين

تقدم لنا الحضارات المبكرة فى الشرق الأدنى فرصة فريدة لدراسة نشأة الدين وتطوره فى منطقة ذات أجناس وثقافات مختلطة ظهرت فيها ديانات التوحيد الكبرى: اليهودية والمسيحية والإسلام، والتى تدين جميعها ببعض الدين للمراحل المبكرة فى الفكر الدينى فى بلاد ما بين النهرين موطن السومريين والبابليين والأشوريين. ولقد كشف علماء الآثار عن بقايا أقدم المستوطنات القروية التى كانت موجودة بالفعل فى الألف السابع أو السادس قبل الميلاد، وفى الألف الرابع تعلمت مجموعات كبيرة من الناس التحكم فى مياه نهر دجلة والفرات، ورى السهول المحيطة بهما؛ وهذا التحكم فى البيئة مكن المدن من الاستقرار على ضفاف الأنهار والقنوات الرئيسية .

ومنذ عصور ما قبل التاريخ وهؤلاء الناس على وعى بالقوى الروحية التى يعتمد عليها وجودهم، وتشهد على ذلك بقايا المعابد والهياكل وأماكن التضحية وتقديم القرابين، والتماثيل الرمزية الصغيرة، وتماثيل الآلهة وعادات الدفن. ومع ظهور الكتابة حوالى عام 3000 ق.م ظهر مصدر جديد من الشواهد التى زودتنا بما يقرب من نصف مليون وثيقة مكتوبة على الطين [13].

ويرتكز تصورهم الرئيسى على أن الكون يتسم بالنظام، وكل ما يمكن أن يدركه الإنسان فهو انعكاس لتجلى العقل الإلهى ولنشاط خارق للطبيعة. والعناصر الرئيسية التى يتألف منها الكون – عند السومريين – هى السماء وتدعى "آن" An (أو الأعالى) والأرض "كى" Ki (أو الأسفل) وهى زوجة الإله "آن"، ويظهر الزوجان معاً فى النصوص البابلية القديمة. ولقد كان "آن" (إله السماء المذكر) و"كى" (إلهة الأرض المؤنثة) ملتصقين فى البداية ثم تزوجا وأنجبا ابنهما "إنليل" Enlil وهو إله الجو والعواصف وسيد النسيم.

ويعتقد السومريون أن البحر – الذى كان فى البدء – هو السبب الأول الذى

انبثق عنه الكون المخلوق وتشكلت فيه الشمس والقمر والكواكب والنجوم، والكل يتحرك فى طريقه الإلهى المرسوم. وما يحدث فى السماء يحدث على الأرض، ثم ظهرت النباتات والحيوانات والحياة البشرية. أما الكائنات التى تعلو على الإنسان والموجودات غير المنظورة التى تتحكم فى الكون الكبير وتتجسد فيه، فكانت بالضرورة توصف بصفات بشرية، فهى مثل الرجال والنساء لها انفعالات طاغية وجوانب ضعف كبرى، كما كانت تأكل وتشرب وتتزوج وتنجب أطفالاً، لكنها على خلاف البشر خالدة. فالآلهة عندما خلقت البشر احتفظت لهم بالموت، وأبقت الحياة فى يدها [14].

وإذا تحدثنا بشىء من التفصيل عن مجمع الآلهة السومرى، سنجد نصوص عديدة تصف حكم الإله الأسمى "إنليل" لمدينة "نيبور" Nippur المجاورة لمدينة "أوروك" (الواقعة فى جنوب الرافدين)، فهو رب السماء ورب الأرض ورب الشمس والخصب والزرع، ورب الماء وواهب الحياة. غير أن "إنليل" لم يكن وحده من ارتدى قناع الإله الواحد الذى يجسد الألوهية المطلقة فى المعتقد السومرى. فكهنة "إنانا" Inana [15] يرفعون إلهتهم إلى مقام "إنليل" نفسه، حيث كانت تُعبد فى كل معابد المدن السومرية الرئيسية المخصصة أصلاً للآلهة المحلية. وهذا يعنى أنهم لا يرون فى آلهة المدن إلا صوراً وتجليات للألوهية المؤنثة الكونية المتمثلة فى الأم الكبرى القديمة للثقافة الرافدية. ولقد صورها الكهنة وهى تمسك بيدها النواميس السبعة، أى نواميس آلهة سومر الرئيسية: "آن" و"أنليل" و"إنكى" و"ننحرساخ" و"سن" و"أوتو" و"إنانا" نفسها. وهذه النواميس هى التى تُمكن الآلهة من الحكم والسلطان [16].

ولدينا نص بابلى يتابع صورة الإلهة "إنانا" – التى صار اسمها "عشتار كسيدة للآلهة، ويصفها بصفات القوة والجبروت :-

"إليك أرفع صلاتى يا سيدة السيدات ويا إلهة الآلهة.

أيتها الجبارة بين الأميرات، عظيم هو اسمك

أنت حقاً نور السماوات والأرض. يا ربة الرجال والنساء

عندما تنظرين إلى الميت يحيا. وإلى المريض يشفى

ويهتدى بوجهك من يضل الطريق .

وهناك نص آخر يصف إلهة الحب والخصب والجمال "عشتار" بأوصاف تبين سحرها وجمالها مع الاحتفاظ بمكانتها كسيدة للآلهة .

بين النساء اسم واحد هو اسمها

عشتار مالها فى العظمة من مثيل

رائعة أحكامها سامية وقوية

بظهورها تكتمل البهجة والسعادة

بيدها تمسك مقاليد الأمور جميعاً" (17).

ولاشك فإن إنسان الشرق القديم لم يكن يأخذ مسألة تعدد الآلهة مأخذ الجد، ولم تكن هذه الآلهة بالنسبة له إلا وجوهاً متعددة للقدرة الإلهية الواحدة. لقد آمن هذا الإنسان بألوهية منزهة يتوسل إليها من خلال إله مشخص هو إله المدينة أو الإقليم، الذى رأى فيه التعبير الأسمى عن فكرة الألوهية .

ملحمة (18) جلجامش

تعتبر ملحمة جلجامش من أقدم الملاحم التى عرفها الأدب الإنسانى، فهى سابقة على أقدم الملاحم الإغريقية بما يقرب من ألف وخمسمائة عام. وهى ليست مجرد ملحمة قديمة، ولكنها أيضاً على درجة كبيرة من العمق الفكرى حيث احتوت على كثير من الدلالات التاريخية والدينية والانثروبولوجية، علاوة على مضامينها السياسية والسيكولوجية والأخلاقية والفلسفية. وبالإضافة إلى هذا كله فقد اشتملت أيضاً على رؤية متقدمة فى التاريخ الإنسانى، وعلى تصور عميق لفلسفة الحضارة الإنسانية. إنها أنموذج أدبى فريد فى نوعه يعبر عن خلاصة تفكير بلاد ما بين النهرين فى التاريخ والحضارة، ويعكس فى الوقت نفسه النشاط الثرى لشعوب هذه المنطقة، والدور الفعال الذى لعبته فى حضارة العالم القديم (19).

ولعل من أهم الأسباب التى اكسبت الملحمة شهرة واسعة – قديماً وحديثاً – كون موضوعها إنسانياً محضاً، فهى تتعامل مع أشياء من عالمنا الدنيوى مثل الإنسان والطبيعة. وربما لأول مرة فى الأدب القديم يصبح الإنسان محور الاهتمام، ويتصدر وسط المسرح فى عمل أدبى قديم على غير ما عهدنا فى الأساطير والملاحم القديمة التى تناولت الآلهة وجعلتها موضوعاً أساسياً لها إلى الحد الذى سمح لبعض الباحثين بتعريف "الأسطورة القديمة" بأنها "قصة عن الآلهة". وفى ملحمة "جلجامش" نجد أن الإنسان هو البطل، وليس الإله أو مجموعة من الآلهة؛ ونجد البطل الإنسان تتجاذبه مجموعة من الأحاسيس والمشاعر الإنسانية المتناقضة من حب وكراهية، وحزن وفرح، وتفاؤل وتشاؤم، وأمل ويأس.. وغير ذلك من الصفات؛ وقد أمكن مزجها جميعاً ببراعة متناهية لتكون خلفية لموضوع الملحمة الرئيسى ألا وهو "حقيقة الموت المطلقة" (20).

وتبدأ الملحمة فى لوحها الأول بالتغنى بأعمال "جلجامش" وصفاته، فتذكر أنه رأى كل شىء وعرف جميع الأشياء، فهو الحكيم العارف بالأسرار والخفايا؛ والذى جاء بأنباء ما قبل الطوفان ورحل إلى بلاد بعيدة، وبعد عودته نقش على الحجر أخبار رحلته. ثم تذكر هذه المقدمة بعض أعمال "جلجامش" ومنها بناء أسوار مدينة "أوروك" ومعبد "إنانا" أو معبد "عشتار". ويُوْصَف بأنه البطل الشجاع، المكتمل القوة وفيه الجلال والألوهية، وهو الذى فتح كل مجازات الجبال وحفر الآبار فيها، وعبر البحر المحيط، وجاب جهات العالم الأربع وسعى لينال الحياة الخالدة. وخصه الإله بالبطولة، هيئته كاملة طوله أحد عشر ذراعاً وعرض صدره تسعة أشبار وهيئة جسمه مخيفة كالثور الوحشى.

وبعد هذا التعريف "بجلجامش"، تنطلق الملحمة إلى ذكر بعض أمثلة على عنفه وبطشه وغروره بقوته، حيث يضطر شعبه إلى الاستنجاد بالآلهة للتخلص من ظلمه، فتطلب الآلهة من إلهة الخلق "أورو" Aruru أن تخلق غريماً "لجلجامش" يستنزف كل قوته فى صراع دائم حتى تخلد مدينة "أوروك" إلى الراحة والسلام،

فغسلت إلهة الخلق يديها، وتصورت فى عقلها صورة الإله "أنو" Anu وأخذت قبضة من طين ورمتها فى البرية فتم خلق "إنكيدو" Enkidu القوى[21]. الذى يعيش مع حيوانات البرية، ويأكل مع الظباء ويتزاحم على موارد المياه مع الوحوش .

وتحكى الملحمة أن "جلجامش" يصارعه ويتغلب عليه رغم قوة "انكيدو" ولهذا السبب يعجب به الملك ويتخذه صديقاً حميماً. ويقوم الاثنان برحلة إلى غابة الأرز التى يحرسها المارد المخيف – الذى عينه الإله "إنليل" – لأن "جلجامش" أراد وضع اسمه فى سجل الآلهة والخالدين، فقتل المارد بالفعل وعندما انتصر تراه الإلهة "عشتار" فتعجب به وتطلب منه الزواج، ولكنه يرفض فتغضب منه وترسل له "ثور السماء" لينتقم لها، غير أن "جلجامش" يقتل الثور ويمزقه، فتحزن الإلهة (على الثور) وتلعن "جلجامش"، إلا أن "انكيدو" صديقه الحميم يرد على لعنات "عشتار" بانتزاع فخذ الثور ويقذفه فى وجهها. ويصدر الحكم الإلهى على "إنكيدو" بالموت، وعندما مات الصديق حزن "جلجامش" حزناً شديداً وشعر بمأساة البشر الحقيقية ألا وهى الموت، فترك عرشه وراح يهيم على وجهه باحثاً عن سر الخلود [22].

إن الكفاح المتواصل لبطل الملحمة من أجل تغيير مصيره الإنسانى المحتوم – عن طريق معرفة سر الخلود – ينتهى بالفشل فى نهاية الأمر، ولكن مع هذا الفشل يأتى شعور هادئ بالاستسلام. ونحن نجد لأول مرة فى تاريخ العالم القديم، تجربة عميقة على مثل هذا المستوى البطولى .

وخلاصة القول، إن ثقافات الشرق القديم قد ظلت، حتى فتراتها المتأخرة، تعبر عن حكمتها بطرق مختلفة؛ وبقيت معتقداتها الدينية مغلفة بظلال كثيفة من التصورات الميثولوجية التى تحجب جوهرها وحقيقتها تارة، وتكشف عنهما تارة أخرى .

* * * *

بلاد اليونـان

لم يعرف اليونانيون عن ماضيهم القديم ما يتجاوز حدود حرب طروادة، أى أواخر القرن الثالث ق.م، والتى كانوا يعتبرونها بداية لتأسيس الحضارة اليونانية؛ وينظرون إليها كماضى مغرق فى القدم. ويرى بعض الباحثين، أن اللغة اليونانية قد دخلت أرض اليونان فى مطلع الألف الثانى قبل الميلاد على يد فاتحين ينتمون إلى جماعات تدعى الهندو- أوروبية، وأن دخول هذه الجماعات كان بداية مرحلة حضارية جديدة بالنسبة لليونان. وهذا يعنى، أن حوالى ألف عام من تاريخ الثقافة اليونانية كان مجهولاً تماماً لدى اليونانيين فى القرن السابع قبل الميلاد .

والمشكلة التى نواجهها اليوم فى دراسة الميثولوجيا اليونانية هى أننا رغم معرفتنا بأن "هوميروس" و"هزيود" قد قدما لنا صورة كاملة عن التقاليد القديمة، إلا أننا لا نستطيع اختراقهما وصولاً إلى الأشكال الأصلية؛ والسبب فى ذلك راجع إلى عدم توفر نصوص أدبية أسطورية من الفترات السابقة للقرن الثامن قبل الميلاد. وكل ما وصل إلينا هو الصياغة الأدبية التى ابتدأها "هوميروس" و"هزيود" ثم تابعها فيما بعد عدد من المؤلفين الكلاسيكيين تمثل انتصار العمل الأدبى على المعتقد الدينى – على حد قول مؤرخ الأديان المعروف "ميرسيا إلياد". ولا توجد أسطورة يونانية نقلت إلينا السياق الدينى الخالص، وإنما جاءت من خلال وثائق أدبية منظمة مقطوعة الصلة بالخبرات الدينية الأصلية – فيما عدا الأساطير التى تدور حول الديانات السرية وذلك نتيجة للطابع المغلق لتلك الديانات [23].

آلهة اليونان

أطلق الباحثون على قصائد "هوميروس" اسم "إنجيل الإغريق" وهى إن لم تكن كذلك، فقد كانت مسئولة أكثر من أى عامل فردى عن تثبيت وتدعيم صورة الآلهة الشبيهة بالبشر فى أذهان الناس. والآلهة فى قمة جبل الأولمب يؤلفون

حكومة ملكية على رأسها الإله "زيوس" Zeus [24] السيد المسيطر والقائد الأعلى وأب الآلهة والبشر. ثم هناك بعض التخصصات فى الوظائف، فـ "هيرا" Hera [25] هى حارسة الزواج، و"بوزيدون" Poseidon [26] يحكم البحر، و"أفروديت" Aphrodid [27] هى قوة الحب. أما "أثينا" Athena فهى، بالإضافة إلى خصائصها الحربية، ربة الحكمة وراعية الحرف الفنية. وارتبطت الأرض الأم بحصاد القمح، أما الإله "أبوللو" Apollo فهو إله الشمس الذى يرسل أشعته فتنتشر فى أرجاء الأرض؛ ولقد أشرف فى العصور الكلاسيكية على الثقافة بمعناها الواسع أى الموسيقى والأدب والفكر [28].

ولقد صورت القصائد الآلهة على هيئة البشر، إلا أن سائلاً عجيباً يجرى فى عروقهم فيكفل لهم الخلود، وهم أقوى من الأبطال وأسرع حركة، يظهرون للناس أو يختفون كما يشاءون. يسكنون قصوراً فى السماء رائعة الجمال يقطنون فيها حياة ناعمة، يأكلون ويشربون ويتزاوجون. تجرحهم السهام والرماح فيتألمون وهم حادثون بمعنى أنهم وجدوا فى الزمان وما يزالون خاضعين لتعاقب الأيام. وهم على مثل هذا النقص من الناحية الخلقية، لهم شهواتهم ونزواتهم، يتفرقون أحزاباً ويتدخلون فى منازعات البشر. يؤيد بعضهم اليونان ويناصر البعض الآخر أهل طروادة. يخونون ويغدرون، لا يرعون من البشر إلا من يتقرب إليهم كيفما كانت أخلاقه ولا يحفلون بعدل أو بظلم إلا فيما ندر [29].

غير أن أخطر ما فى الأشعار "الهوميرية" من أثر هو "فكرة القضاء والقدر" وفكرة "الضرورة". وقد أثرت هاتان الفكرتان على فلاسفة اليونان وتناولهما فى تفسير الموجودات الطبيعية والأعمال الإنسانية. وليس التفسير الطبيعى الذى يرد الكائنات إلى صورة ثابتة لا تتغير هى هى بعينها إلا تطبيقاً لفكرة "الضرورة" التى تخضع لها حياة الآلهة والبشر جميعاً فى أشعار "هوميروس". وعلى الرغم من أن فكرة "القضاء والقدر" هى المسيطرة فى الشعر عن الأبطال، فإن الإنسان يستطيع مع ذلك أن يفكر لنفسه وأن يختار طريقه فى السلوك وأن يضع حياته على حسب

ما يهوى. لهذا السبب يرى بعض الباحثين أن "الأليادة" قد صورت الإنسان بطلاً من الأبطال وأنها قللت من شأن الآلهة حتى أصبح موقعها أشبه بشخصيات الشعراء وليست أرباباً يقدمها للبشر ويعبدونها. فكان ذلك التصور للآلهة بداية الحركة العلمية التى نشأت فى القرن السادس ق.م [30].

أما "الأوديسة" فقد صورت الآلهة أكثر وقاراً واحتراماً، بل كانت تتحدث عن العدالة والفضيلة، فتمجد الرجل الشجاع الصبور والزوجة الوفية، والأبن البار والخادم الأمين. وكانت ترى أن تكريم الآلهة واجباً تقضى به العدالة عرفاناً لفضلهم.

ثم جاءت أشعار هزيود، فصورت قصة الآلهة وأنسابهم وعلاقة الأرض بالسماء وانقسام العالم بعد انتصار الأخوة الثلاثة: "زيوس" و"هاديس" Hades [31] و"بوزيدون". ثم مضت هذه الأشعار فصورت تسلسل الأشياء والآلهة، فوضعت فى البدء ثلاثة أصول: أولاً ما يسمى "كاوس" Chaos أى الفراغ (والكلمة تدل على معنى الفوضى والغموض والاضطراب) ومن بعد الفراغ أو الهيولى، نشأت "جايا" Gaia أى الأرض الخصبة ذات الصدر الرحب العريض موطن جميع الآلهة سواء من يسكنون منهم الأعالى فوق جبل الأولمب أو فى أغوار الأرض. وكان هناك "ايروس" Eros أو الحب، أجمل الآلهة الخالدين الذى يسرى فى أوصال الآلهة والناس ويتحكم فى قلوبهم. ومن الفراغ نشأ الظلام "أريبوس" Erebus ومن الظلام أنجب الليل "مكس" Myx والد "همرا" Hemera أى النهار و"الأثير" Aether أى النور. ويدل ترتيب ظهور الأشياء فيما بينها على علاقات العلية وعلى مبدأ أن الأصغر يخرج من الأكبر. فخرجت الجبال من الأرض والأنهار من "أقيانوس" Oceanus [32] ومنهم إلى آلهة الأولمب [33].

وفى هذا الإطار، يمكن القول أن التصور الذى يربط الآلهة بالبشر – فى أشعار "هوميروس" و"هزيود" – هو نفسه الذى كان يقف حائلاً دون تطلع الإنسان إلى الألوهية، وكان يبرز الفارق التام بين ما هو فان وما هو خالد ، ولقد قل هذا الفارق تدريجياً بعد أن ظهر فى الديانة اليونانية تصور للألوهية أكثر روحانية فى العصور

التالية، وهو تصور كان من شأنه بعث الآمال فى قيام شكل مختلف من العلاقة التى بلغت ذروتها باتحاد الإنسان والإله معاً [34].

الديانة السرية

كما هو معروف كان لكل مدينة يونانية آلهتها، وكان اليونان يعترفون فى علاقتهم بالآلهة بالفضل وبالمصلحة الخاصة والخوف من العقاب. وكان يتم النظر إلى الآلهة بوصفهم بناة المدينة وحراسها، وكان تكريمهم واجباً مقدساً، وكان الإلحاد فى حقهم خيانة للوطن، أى جريمة يُعاقب عليها القانون. غير أن تيارات دينية أخرى ظهرت، وقصدت إلى تجاوز حدود المدينة ودعوة الناس جميعاً – حتى الأجانب والأرقاء – إلى حياة روحية أسمى وأرفع. والسبب فى ذلك هو أن فريقاً من اليونان لحظوا الفارق بين سيرة الإنسان وما يعتقده من مثل أعلى فى الأخلاق، واستوقف نظرهم التعارض القوى بين شقاء الإنسان وسعادة الآلهة. فبدا لهم أنه قد يكون بالإمكان إيجاد علاقة بالآلهة غير علاقة العبد بالسيد، علاقة تقرب فإتحاد، تكفل للإنسان المشاركة فى السعادة الإلهية. ووجدوا عند الشرقيين ما يؤيد هذه النزعة، فنشأت "أسرار" أى "نحل" سرية تدعو إلى النجاة من مصائب هذه الحياة والسعى نحو بلوغ السعادة فى الآخرة، فيأمنون شر المرض والغرق والخراب والدمار والحرب وما إليها. وبعد الموت النجاة من كل شىء واللحاق بالآلهة فيتخلصون من الكابوس الذى كان قائماً فى صدورهم"[35].

وأشهر هذه "النحل" "الأسرار الأورفية" وكانت تعبد الإله "ديونسيوس" Dionysus وهو إله الخمر عند اليونان واقترن أيضاً بالخصوبة ووحى الشعراء. ويعتبر أحد الآلهة الاثنى عشر فى مجمع الآلهة "الأولمب" وهو ابن كبير الآلهة "زيوس" الذى وهبه السلطان على العالم، فغارت منه الإلهة "هيرا" زوجة الأب، فثارت عليه هى ومجموعة من الآلهة الأشداء فحاربوه حتى انقلب "ثوراً فقتلوه، واستطاعت الإلهة "بلاس" أن تختطف قلبه، فبُعث من هذا القلب "ديونسيوس" الجديد؛ فانتصر ثانية على الآلهة الأشرار وقتلهم وخرج من رمادهم البشر.

وجاءت عبادة "ديونسيوس" أولاً من "تراقيا" و"مقدونيا" حيث كانت النساء شديدات التعلق باحتفالاته الفريدة، وانتشرت أساطير كثيرة حوله فى كل بلاد اليونان بسبب سلطانه على عقول النساء وما يشعرون به من وجد ونشوة. وكان يُعتقد أن الإله "ديونسيوس" يتجلى أحياناً فى صورة الحيوان فيلقب تارة بالثور، ويُوصف تارة أخرى بأنه صاحب قرون الثيران (36).

ويرجع تسمية هذا الاتجاه الدينى "بالأورفية" نسبة إلى "أورفيوس" Orpheus شاعر وموسيقار فى الأساطير اليونانية، ابن الإله "أبوللو" وكان يطرب الآلهة والناس والأشجار والحيوانات والصخور بصوت قيثارته السحرى التى أعطاها له الإله "أبوللو". ويعتقد البعض أنه كان رجلاً حقيقياً، فى حين اعتقد آخرون أنه كان إلهاً أو بطلاً خيالياً. وعلى أية حال، فإنه يستحيل معرفة شىء عن حياته وعن آرائه وعن منشأ نحلته لكثرة ما رُوى عنه من الأخبار المتضاربة، وما نسب إليه من الكتب المتعارضة.

واتفق الرواة على أن الشاعر "أورفيوس" عاش فى "تراقيا" قبل عصر "هوميروس"، غير أن الأشعار الأورفية لم تُكتشف إلا فى القرن السادس ق.م؛ إذ عثر على ثمانية ألواح ذهبية: ستة منها فى جنوب إيطاليا وواحدة بروما وواحدة أخرى بكريت. وقد وُجِدَت فى قبور تحمل وصايا وطقوس هذه الديانة السرية (37).

ترى "الأورفية" أن للبشر طبيعة خيِّرة تتمثل فى نفس الإنسان ومصدرها "ديونسيوس" نفسه، وطبيعة شريرة فى جسم الإنسان ومصدرها طائفة من الآلهة الأشداء يسمون بـ التيتان. والنفس تظل سجينة فى البدن عقاباً لها على خطأ اقترفته أثناء وجودها إلى جوار الآلهة. وترى "الأورفية" أن بقاء النفس فى الجسم هو بمثابة تكفير عن خطيئتها، ومن هنا، فإن المطلوب من النفس فى حياة ما قبل الموت أن تقوم بواجبات إضافية إلى جانب حياة الزهد، وهذه الواجبات تتحدد بمجموعة طقوس تحت إشراف رجال الدين الأورفيين. وإذا التزم الإنسان بهذه الطقوس فى الحياة الدنيا، فإنه يفوز بالسعادة الدائمة فى العالم الآخر (38).

ولكى تتطهر النفس من خطاياها يجب أن تمر خلال ولادات على مدى آلاف السنين، وهى فى طريقها هذا للخلاص من الشر تحتاج إلى مرشد روحى، وقد كان "أورفيوس" يمثل المرشد بالنسبة للأتباع والمريدين فى عصره وكان على التابعين لهذه النحلة أن يمتنعوا عن أكل اللحم وعن ارتداء ما يُصنع من مواد حيوانية أو تقديم قرابين دموية. فواجب الإنسان ـ إذن ـ أن يتطهر من الشر، وهذا أمر عسير لا تكفى له حياة أرضية واحدة، بل لابد من سلسلة ولادات تطيل مدة التطهير والتكفير إلى آلاف السنين [39].

لقد كان "للأورفية" أثر فعال على الشعراء والمفكرين، بل هى التى وجهت الفلسفة وجهتها العقلية الروحية على أيدى "فيثاغورس" و"سقراط" و"أفلاطون".

* * * *

obeikandl.com

بزوغ فجر الفلسفة

يمثل تاريخ الفلسفة صراعاً لا هوادة فيه مع الأسطورة، ذلك لأن الأسطورة كانت تقوم بمهمة تعليم الذهن الشعبى وتشكيله فى آن واحد. ولم يكن اليونانى العادى ينظر إلى الأسطورة على أنها تُكون عالماً خيالياً مصطنعاً، وإنما كان ينظر إليها بوصفها أساس لكل سلوكه فى الشئون المتعلقة بالحرب والسياسة والعلاقات الاجتماعية والدينية. ومن المعروف، أنه لم تكن لدى اليونانيين القدماء كتب مقدسة أو هيئة دينية تضع الدين فى صيغ ثابتة يتقيد بها الناس. ومن هنا، كانوا يستشهدون بالأساطير فى الشئون الخاصة بالسلوك فى الحياة. ولما كانت الفلسفة قد ظهرت بين اليونانيين لتطالب لنفسها بهذه الوظيفة ذاتها، أعنى تقديم تفسير للعالم وتوجيه سلوك الإنسان، فقد كان من الطبيعى أن يحدث صراع بين الفلسفة والأسطورة .

ومع ذلك، فإن فلاسفة اليونان الذين تصدوا لإقامة نظم فلسفية عقلانية على أشلاء الأسطورة، لم ينجوا تماماً من سحر البيان الأسطورى. فقد تساءل "طاليس" Thales (BC546-624) – منذ فجر القرن السادس ق.م – عن نشأة الكون وبحث عن إجابة بمصطلحات المادة، فرأى أن الأشياء جميعاً أشكال متنوعة من الماء الذى لا غنى عنه للحياة. ففى استطاعته أن يتجمد أو أن يصبح غازاً، وتلك هى بداية العملية التى أنزلت "زيوس" من عرشه. ومع ذلك، فإن هذه البداية العلمية لم تتحرر من الأسطورة، فالماء الذى يتمثل فى صورة "الاوقيانوس" كان أحد الموجودات الأولية فى الأساطير اليونانية – كما سبق القول – ونظرة "طاليس" إلى الوجود جاءت نتيجة حركة الكائنات الحية ونموها والتفكير فى وجود قوة باطنة هى التى تحركها؛ وأن هذه القوة هى إله من الآلهة – وهذا معنى قوله "كل شىء مملوء بالآلهة" (40).

أما "انكسيمانس" Anaximenes (BC525-585) الذى أحل الهواء محل

الماء، فقد أعلن أنه إلهى. وكان هناك اعتقاد عام فى ألوهية مادة واعية تحيط بالكون وتتسرب من خلاله لتشكل الهواء العلوى أو الأثير. وبحث فلاسفة آخرون عن قوة محركة، فكانت المحبة والنزاع عند "أنبادقليس" والعقل عند "انكساجوراس".

والمدرسة الفيثاغورية تعد السابقة التى منعت الفلسفة اليونانية من التخلى كليةً عن الطابع الدينى. فقد تحدثنا – فيما سبق – كيف كانت الأسرار الأورفية عاملاً هاماً ساعد على تدعيم العقائد الدينية التى تؤمن بتطهير النفس والخلاص من العالم الدنيوى الزائل. فقد اعتنق "فيثاغورس" pythagoras (572-490 BC) هذه العقيدة، وكانت تعاليمه الدينية تدعو إلى حركة جديدة تأخذ من جميع التيارات الموجودة بطرف، فيها طقوس من بابل ومصر وآسيا وتراقيا، ومن العقائد القديمة الموجودة عند اليونانيين إلى جانب العقائد السرية كالأورفية [41].

أما "أكسانيوفان" Xenophanes (431-355 BC) فقد هاجم بعنف النزعة التشبيهية التى تصور الآلهة على شاكلة البشر. ويقال أنه ارتفع بعقله فوق حكايات قدماء الشعراء، وصرف جهده إلى القول بنظام اسمى من التجربة المحسوسة ومن أقواله:

> **"إن الناس هم الذين استحدثوا الآلهة، وأضافوا إليها عواطفهم وصورتهم وهيئتهم. فالأحباش يقولون عن آلهتهم أنهم سود فطس الأنوف. ويقول أهل تراقيا أن آلهتهم زرق العيون حمر الشعور. ولو استطاعت الثيران والخيول، فصورت الآلهة على مثالها إلا أنه لا يوجد غير إله واحد هو أرفع الموجودات السماوية والأرضية، ليس مركباً على هيئتنا ولا مفكراً مثل تفكيرنا، ولا متحركاً ولكنه ثابت، كله بصر وكله فكر وكله سمع، يحرك الكل بلا عناء"** [42].

وإذا ألقينا نظرة عامة على فلسفة "بارميندس" Parmenides (510 BC) فنجد أنه يعد تلميذاً للفيثاغوريين، ومن ثمَّ فإنه تأثر بالنظريات الأورفية. كما أنه عارض "هيرقليطس" فوضع الثبات والدوام وهوية الوجود فى مقابل الحركة والتغير. لكنه

وفق بين بحثه عن الحقيقة – عن طريق الرياضة – وبين فهمه لما هو حسى متوسلاً بالأسطورة. فقد نظم قصيدة شعرية عبر بها عن فلسفته، ولعل اختياره لهذا الأسلوب هو أنه كان يرى – فى فلسفته – وحياً إلهياً لا يليق أن يصاغ إلا فى الأسلوب الملائم لكلام الآلهة وهو الشعر. والدليل على ذلك، أنه استهل قصيدته بحديث على لسان إلهة العدالة التى ترحب به وترشده إلى الحقيقة [43].

ولسنا بحاجة إلى أن نستعرض ها هنا السمات المميزة للفلاسفة السابقين على "سقراط" جميعاً مثل: "زينون" و"انبادقليس" و"انكساجوراس" و"ديمقريطس" .. إلخ؛ غير أننا نستطيع أن نؤكد أمرين بالنسبة إليهم جميعاً أولاً: أنهم قد استغلوا الأسس التى وضعها المفكرون الأيونيون. وثانياً: أن الأساطير الأصلية توجد لديهم جميعاً بنسب متفاوتة. والسوفسطائيون هم وحدهم الذين ينظرون إلى الماضى نظرة ارتياب وشك، ولكنها نظرة يشوبها الكثير من الإدعاء والتظاهر، ذلك أنهم قد أخذوا على عاتقهم رسالة إنقاذ الفن والثقافة. وهذا معناه أنهم لا يرفضون بصورة قبلية أى تراث. وإذا كانوا قد أهملوا "الدين" بحجة أنه من الغموض بحيث لا تكفى حياة الإنسان القصيرة لفهمه، فإنهم لم يهملوا الأخلاق إهمالاً تاماً [44].

ويستمد "سقراط" Socrates (BC 399-470) شعاره المعروف "اعرف نفسك" من حكمة منقوشة على معبد دلفى. وفضلاً عن ذلك، فإن "الجنى" الذى تحدث عنه يستمد إلهامه من منابع دينية لا من منابع دنيوية. ويبدو من الواضح أنه يختلف عن السوفسطائيين فى احترامه للعادات الدينية السائدة فى عصره وفى احترامه لقوانين المدينة، وفى استخدامه للحجج ومناقشة الخصم، فهو يفكر ويجادل ويحاول الوصول إلى تعريفات للمفاهيم والتصورات من أجل "الفعل الإنسانى". وحين ينتهى من التفكير والجدل والتعريف يصبح توافق الذات مع نفسها أمنية مطلوبة على مستوى الأفعال وفى السلوك العملى [45].

ورغم أن سقراط استمد شعاره من الحكمة المنقوشة على معبد دلفى – كما

سبق القول – واستمد إلهامه الفكرى من منابع دينية حينما استمع إلى صوت الضمير وحده، إلا أن دعوى الاتهام إليه ترى أنه رجل أفسد الشباب وقال بآلهة جديدة ودين جديد؛ أى أنه أراد الاستغناء عن آلهة المدينة ودين المدينة. وقد تبدو إدانة سقراط وموته – من الوجهة السياسية – علامة من علامات انتصار المدينة، فى ذلك الوقت، وانتصار تقاليدها وآلهتها؛ وتعد أيضاً من مظاهر تغلبها على المفكرين والفلاسفة (46).

وسار "أفلاطون" Plato (427-347 BC) فى طريق أستاذه "سقراط"، وقد دعا إلى السعى إلى اكتساب أعلى وأسمى معرفة وهى معرفة الخير عن طريق العقل، الذى يبدأ بمعرفة الجزيئات وترابطها صاعداً نحو مبادئها وعللها الأولى. هذا الطريق الطويل يبدأ عنده بالرياضيات فالهندسة فالفلك فى بناء هرمى معرفى متصاعد. ولكن أفلاطون رغم محبته للنزعة غير العقلانية فى النفس الإنسانية – والتى يعمل الشعر والأسطورة على تدعيمها – فقد اتجه إلى تأليف أساطير من صنعه: أسطورة الكهف، وأسطورة اختيار النفس لمصيرها والحساب بعد الموت؛ وذلك بهدف شرح وتوصيل أفكاره المجردة، ولعلمه بما للأسطورة من سلطان على النفوس ومن مقدرتها على تثبيت الأفكار والمعتقدات (47).

وجاء "أرسطو" Aristotle (384- 322 B.C) بعد أفلاطون وأشاد بعظمة التأمل، حيث رأى فيه الفضيلة العليا التى يجب أن يتحلى بها الإنسان، فضيلة تسمو على جميع الفضائل. والفيلسوف يحيا حياة الآلهة، إذ قام مثلهم بتأمل الموضوعات الأزلية، أى الأفلاك فى دورانها المنتظم. وقد بيَّن أن حركة العالم تقوم على حركة الأفلاك العليا، وهذه الحركة تتم بجذب المحرك الأول أو الإله لها. كذلك رأى أن هناك سلسلة كبرى من الموجودات تبدأ من المادة الخالصة التى هى الله فى القمة، وهى سلسلة تمتد من المكان البحت (أو الوجود بالقوة) إلى الفعل الكامل (أو الوجود بالفعل). وينشغل الإله بتأمل ذاتى لا نهاية له، فهو لا ينشغل بالعالم وإنما يحركه دون أن يحتاج إلى أن يقوم بأدنى حركة فهو المحرك الذى لا يتحرك (48).

الفلسفة الهيلنستية Hellenistic

للحضارة اليونانية عصر هيليني وعصر هيلنستي: الأول عصر الحضارة اليونانية في نشأتها وتطورها ونضجها في بلاد اليونان ومستعمراتها بوجه عام، وحول أثينا بوجه خاص. بدأ قبل القرن السادس ق.م وامتد حتى انتصار الدولة المقدونية على بلاد اليونان. أما العصر الثاني فبدأ عند "الاسكندر" وامتد عدة قرون بعده، وامتاز بانتشار الحضارة "الهيلينية" ذاتها، لا في بلاد اليونان ومستعمراتها فحسب وإنما في حوض البحر المتوسط بين مصر وإيطاليا، وفي الشرق الأدنى من آسيا، وفي شرقها الأقصى أيضاً (49).

مهد "الاسكندر" بفتوحاته وآرائه إلى نشر الفكرة الصادرة أصلاً عن الفلاسفة – وخاصةً "أفلاطون" و"أرسطو" – القائلة بأن الإله الحق هو العقل المنظم للأفلاك وحركاتها؛ ومهد أيضاً إلى الفكرة المتفرعة منها، فكرة مدينة عالمية تضم جميع الشعوب تحت لواء قانون واحد وحكم واحد هو حكم الإله. هذه الفكرة الثانية لا نجدها عند الفلاسفة السابقين على "الاسكندر" وإنما نجدها واضحة وصريحة في المدرسة الرواقية وبخاصة عند مؤسسها "زينون". صاغ "زينون" فلسفته وعبر عنها تعبيراً دقيقاً، حينما رأى أن كل إنسان يحمل في نفسه شيئاً من الإله الذي يحكم العالم، بل أن العقل الإنساني ذاته ليس إلا شرارة من النار الإلهية التي تسري بين جميع الكائنات تحييها وتربط بينها وتجعل منها عالماً واحداً. يقول:

> **"لا يجب صنع هياكل أو تماثيل للعبادة، فليس الذي يُعبد شيئاً نفيساً أو مقدساً. إن الإله قائم في العقل وحده، ولا يجب عبادته إلا في العقل"** (50).

أما "أبيقور" Epicurus (B.C 270-341) فرغم أنه هاجم الخرافة وما تصحبها من شرور، فإنه كان رجلاً يؤمن إيماناً كبيراً بوجود الآلهة، على نحو خاص يتفق مع مذهبه في المعرفة وفي الطبيعة، ودعا إلى هذا الإيمان لأنه وجد هناك معتقداً عاماً بين الناس بأن الآلهة موجودة؛ وتبعاً لذلك تصورها في نفوس البشر أو في الهواء

على شكل صور أثيرية يدركها الناس. كذلك رأى أن الإنسان فى حاجة إلى أن يُجَسِّم آماله وأمانيه فى صورة مثالية عليا، وهذه الصورة لا حرج فى أن نسميها الله أو الآلهة. ولقد وضع نصائح أربع لكى ينال الإنسان الصحة هى:

1- لا يصح أن نخاف من الآلهة. 2- إننا لا نشعر بالموت.

3- من السهل الوصول إلى الخير. 4- من السهل تحمل الشر [51].

وبعد موجة من الشك والانشغال بالمشكلات الإبستمولوجية (مشكلات المعرفة) عادت الأفلاطونية إلى اللاهوت، وعلى وجه أخص اللاهوت اليهودى وظهرت عند "فيلون" الذى استطاع أن يجمع بين الثقافة اليونانية التى أحاط بها إحاطة كبيرة، وبين التفكير اليهودى الذى كان يؤمن به إيماناً كبيراً. فلم يرفض الواحد لحساب الآخر، وإنما كان ممثلاً لذلك النوع من الفكر الذى هو خليط بين الفلسفة والدين أو بين التفكير العقلى والفهم النقلى [52].

غير أن هناك مظهراً ثانياً يعد من أهم المظاهر التى اهتمت بتكوين فلسفة إلهية دينية، وهو التفكير المنسوب إلى "هرمس"[53] الذى نجد التعبير الكامل عنه أثناء النصف الأخير من القرن الميلادى الثانى فى المؤلفات "الهرمسية". والآراء الفلسفية الواردة فى هذه المؤلفات هى خليط من الأفكار الأورفية والفيثاغورية والرواقية والفيزياء الأرسطية والتنجيم، ولا يوجد فيها تأثيرات مسيحية ولا تأثيرات أفلاطونية محدثة، وهى تكون فى مجموعها "غنوصاً" (= عرفاناً) حقيقياً إلى جانب القيادات الغنوصية المعاصرة لها. ويزعم أصحاب هذه المؤلفات أنهم ينطقون عن وحى إلهى وأن هدفهم هو خلاص الإنسان، ويقررون أنه على قمة الوجود يقوم الله وهو لا يمكن معرفته ولا وصفه؛ لكنهم ينظرون إليه على أنه هو الكون نفسه. أما العالم فهو تارة الله، وتارة أخرى ابن الله والإله الثانى. والإنسان هو الموجود الذى فى المرتبة الثالثة – بعد الله والعالم – من حيث مكانته وقيمته [54].

وجاء "أفلوطين" plotinus (CE270-205) ووجد أن الآراء الغنوصية التى تربط خلاص الإنسان بالفداء قد مزجت هذه الأفكار بنظريات كونية معقدة تخالف التصور الطبيعى للعالم والوجود. ورأى أن الفلسفة يجب أن تضع تصوراً لحقيقة الوجود الذى لا يتغير ولا يتحول؛ كما أنها ترسم للإنسان طريق الخلاص فى هذه الحياة.

إذن، جمع "أفلوطين" فى فلسفته الروحية عناصر أفلاطونية ورواقية وغنوصية وكذلك بعض النزعات الدينية الشرقية. كل هذه العوامل اجتمعت واتخذت طابعاً فريداً وكونت أعظم عبقرية دينية فى العالم القديم. ويتركز فكره حول "الواحد" الذى يعلو على الشخصية ويجاوز الواقع والفكر والتعريف والفهم، وتتطلع إليه جميع الأشياء. وعنه صدر الكون بأسره بعملية فيض أو صدور، وأعلى مراتب الحياة هى صعود الروح إلى الله بواسطة الاشتياق المسمى بـ "الحب". والواقع أن "أفلوطين" يقول صراحة إن الله هو الحب، ولكن ربما لم يكن هذا التعريف إلا الشعار المقابل للتعبير المسيحى "الله محبة". والغاية الحقة للروح هى الاتحاد الصوفى مع الواحد فى نشوة الوجد[55].

* * * *

obeikandl.com

مراجع الفصل الثالث

(1) الفيدا فى الديانة الهندوسية هى الكتب المقدسة، والكلمة تعنى "المعرفة" ومن ثم، فسفر الفيدا معناه الحرفى "سفر المعرفة" وكلمة "الفيدات" يطلقها الهنود على تراثهم المقدس الذى ورثوه من أولى مراحل تاريخهم.

انظر: د. إمام عبد الفتاح، معجم ديانات وأساطير العالم، المجلد الثالث، ص384.

(2) فراس السواح، دين الإنسان، ص 48.

(3) المرجع السابق، الموضع نفسه .

(4) فراس السواح، الأسطورة والمعنى، ص190.

(5) المرجع السابق، ص191.

انظر أيضاً: Wallis, Budge, Egyptian Religion, Routledge, London, 1975.

(6) فراس السواح، المرجع السابق، ص192.

(7) تخيل المصرى الأرض على أنها ذكر على عكس ديانات العالم القديم، والسبب فى ذلك هو أن كلمة السماء فى اللغة "مؤنثة" وكلمة الأرض "مذكرة" وهكذا صور إله الأرض "جب" مستلقياً على بطنه وقد نبتت المزروعات فوق ظهره .

(8) جفرى بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص46.

انظر أيضاً: Ninian, Smart, The Religious Experience of ManKind, Collins, Fount paperbacks, 1969, p. 289 (Egyptian Religion).

(9) انظر: عبد الحميد زايد، الرمز والأسطورة الفرعونية، مقال فى مجلة عالم الفكر، المجلد السادس عشر، العدد الثالث، الكويت 1985، ص36.

انظر أيضاً: ميرسيا الياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، الجزء الأول، ص118.

(10) سيريل ألدريد، أخناتون، ترجمة د. أحمد زهير أمين، مراجعة د.محمود ماهر طه، سلسلة الألف كتاب الثانى (100)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992، ص145.

انظر أيضاً: سليمان مظهر، أساطير من الشرق، كتاب الشعب (19)، 1958، ص7 وما بعدها.

(11) فراس السواح، دين الإنسان، ص ص94 -95.

انظر أيضاً: سليم حسن، مصر القديمة، الجزء الخامس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، 2000.

obeikandl.com

(12) لمزيد من التفصيل انظر: أدولف أرمان، ديانة مصر القديمة، ترجمة د. عبد المنعم أبو بكر، و د. محمد أنور شكرى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، 1997.

(13) جفرى بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص ص11 - 12.

(14) المرجع السابق، ص12.

(15) "إنانا" هى الإلهة الأم العظيمة فى أساطير الشرق القديم لاسيما عند "السومريين" ومنها اشتقت الإلهة "عشتار" Ishtar إلهة الحب والخصب عند الآكاديين أيضاً. و"إنانا" هو الاسم الشعبى لها، وفى العصر البابلى تسمى "اشتار". والمركز الرئيسى لعبادتها فى كل العصور هو معبد "إنانا" بيت السماء أو بيت الأعالى فى مدينة أوروك. كذلك كان يوجد لها معبد فى كل مدينة سومرية أو آكادية كبيرة. وانطلقت عبادتها خارج حدود بلاد بابل حيث نجد معابد لها فى كل مدينة من مدن الدولة الأشورية.

انظر فى ذلك: د. إمام عبد الفتاح، معجم ديانات وأساطير العالم، المجلد الثانى، ص187

(16) فراس السواح، الأسطورة والمعنى، ص198 وما بعدها.

(17) المرجع السابق، ص203.

انظر أيضاً: Ninian, Smart, op cit, p. 294.

(18) ما تزال كلمة "ملحمة" Epic غامضة فى كثير من الأحيان، ولكن الرأى السائد هو أن الكلمة تشير إلى القصيدة القصصية الطويلة التى تسجل الأعمال البطولية الخارقة التى صدرت عن بعض الأبطال الحقيقيين أو الأسطوريين والتى تمتزج فيها أفعال البشر وتصرفات بعض الكائنات الإعجازية الخفية كالآلهة والمردة والشياطين والوحوش المخيفة، بل أيضاً بعض القوى الكونية والظواهر الطبيعية التى تقوم بدور مساعد، ولكنه فعال فى إنجاز هذه الأعمال البطولية. إلا أننا نجد ميلاً واضحاً فى بعض الكتابات الحديثة إلى إطلاق كلمة "ملحمة" على بعض الأعمال الروائية الكبرى مثل رواية "تولستوى" Tolstoy (1828-1910): "الحرب والسلام"، بل إن بعض الأفلام السينمائية الضخمة تعتبر إبداعات وأعمالاً ملحمية. وبذلك فإن كلمة "ملحمة" لم يعد استخدامها مقصوراً على روائع الأعمال الشعرية القصصية الضخمة التى عُرفت فى العصور الكلاسيكية القديمة (فى الشرق والغرب على السواء) وفى العصور الوسطى وعصر النهضة فى أوروبا، بل إن استخدامها يمتد لكى يشمل ما يُعرف الآن باسم "الشعر الملحمى الحديث"؛ بل أيضاً "المسرح الملحمى" Epic Theatre.

انظر: د. أحمد أبو زيد، الملاحم كتاريخ وثقافة، مقال فى مجلة عالم الفكر، المجلد السادس عشر، العدد الأول، الكويت، 1985، ص4.

(19) د. محمد خليفة حسن أحمد، الأسطورة والتاريخ فى التراث الشرقى القديم: دراسة فى ملحمة جلجامش، ص10.

(20) د. فاضل عبد الواحد على، ملحمة جلجامش، مقال فى مجلة عالم الفكر، المجلد السادس عشر، العدد الأول، الكويت، 1985، ص36.

انظر أيضاً: Ninian, Smart, The Religious Experience of Man Kind, p. 295 (The Epic of Gilgamesh)

(21) د. محمد خليفة حسن أحمد، المرجع السابق، ص12.

انظر أيضاً: سليمان مظهر، المرجع السابق، ص66.

(22) د. إمام عبد الفتاح، معجم ديانات وأساطير العالم، المجلد الثانى، ص ص35 – 36.

(23) فراس السواح، الأسطورة والمعنى، ص43.

انظر أيضاً: ميرسيا إلياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، الجزء الأول، ص305.

(24) اسم زيوس يعنى "الضياء" و"اللمعان" أو "السماء" أو "السماء الصحو" فهو إله السماء التى يرسل منها المطر والبرق والرعد ويُنزل الصاعقة ويسيطر على الظواهر الجوية وعلى الطقس كله. ويصفه "هوميروس" بأنه جامع السحب.

انظر د. عبد اللطيف أحمد على، التاريخ اليونانى، العصر الهللادى، الجزء الأول، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1976، ص215.

انظر أيضاً: د. عماد حاتم، أساطير اليونان، دار الشرق العربى، بيروت – لبنان، 1994، ص 55.

(25) "هيرا" زوجة الإله "زيوس" وتعنى "السيدة" (فهى مؤنث "هيروس" Heros بمعنى سيد أو فارس) وهى إلهة النساء وحامية الزواج والساهرة على قدسية العلاقات الزوجية، وراعية ميلاد الأطفال، وملكة آلهة السماء وأكثر الزوجات غيرة فى الأساطير اليونانية.

انظر: د. إمام عبد الفتاح، المرجع سالف الذكر، المجلد الثانى، ص123.

(26) "بوزيدون" إله البحر، غير أن اسمه كان مثار خلاف كبير بين الباحثين، ففريق يرى أن اسمه معناه "زوج الأرض" وذلك بوصفه إلهاً للماء، والماء مخصب للأرض. ويرى فريق آخر أن اسمه يتضمن مقطعاً بمعنى "البلل" ويقابل المقطع الأول من كلمة "بوتاموس" Potamos بمعنى "النهر" أو "بوسيس" Posis بمعنى "الشراب" و"بوزيدون" أحد آلهة الأولمب الاثنى عشر ويحكم البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود.

انظر: د. عبد اللطيف أحمد على، المرجع السابق، ص246.

(27) "أفروديت" هى الإلهة الأم العظمى، إلهة الحب والجمال، ابنة الإله "زيوس" و"ديونى" Dione. ويقال أن اسم "أفروديت" مشتق من كلمة "أفروس" Aphros بمعنى "زبد البحر". وهى نفسها "فينوس" عند الرومان.

انظر: د. إمام عبد الفتاح، المرجع السابق، المجلد الأول، ص99.

أيضاً: د. عبد اللطيف أحمد على، المرجع السابق، ص279.

(28) جفرى بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص66.

انظر أيضاً: Minian, Smart, op cit, pp.316 – 18.(The Olympian Gods).

كذلك: كوملان. ب، الأساطير الإغريقية والرومانية، ترجمة أحمد رضا محمد رضا، مراجعة محمود خليل النحاس، سلسلة الألف كتاب الثانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992، ص22.

(29) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص3.

انظر أيضاً: مصطفى غلوش، الأسطورة فى الفلسفة الإغريقية، ص22.

(30) د. أحمد فؤاد الأهوانى، فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، دار إحياء الكتب العربية، عيسى الحلبى وشركاه، 1954، ص25.

(31) اسم "هاديس" معناه غير المنظور، أو الخفى الذى لا تراه العين، ولذلك فهو إله العالم السفلى المظلم حيث كانت تذهب أرواح الموتى حسب التصور اليونانى.

انظر: د. عبد اللطيف أحمد على، التاريخ اليونانى، الجزء الأول، ص232.

(32) "أقيانوس" هو أحد الموجودات الأولية فى الأساطير اليونانية وهو ذلك البحر الذى تنبع منه كل الأنهار والينابيع والعيون، ويجرى باستمرار فى حلقة دائرية حول الأرض ويقوم كالحد الفاصل بين العالم وما وراء العالم وسمى فيما بعد البحر الخارجى (أى المحيط الأطلنطى).

د. عبد اللطيف أحمد على، المرجع السابق، الجزء الأول، ص198.

(33) يوسف كرم، المرجع السابق، ص ص4 – 5.

أيضاً: د. عبد اللطيف أحمد على، المرجع سالف الذكر، الجزء الأول، ص198.

كذلك: د. إمام عبد الفتاح، معجم ديانات وأساطير العالم، المجلد الأول ص348.

(34) د. عبد اللطيف أحمد على، المرجع السابق، الجزء الثانى، ص503.

(35) يوسف كرم، المرجع السابق، ص6.

(36) د. إمام عبد الفتاح، المرجع السابق، المجلد الأول ص303 – 304.

(37) د. محمد فتحى عبد الله، النحلة الأورفية، أصولها وآثارها فى العالم اليونانى، القاهرة، 1990، ص8.

(38) لمزيد من التفصيل انظر: د. محمد على أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفى: الفلسفة اليونانية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1976، ص48.

(39) يوسف كرم، المرجع السابق، ص7.

(40) جفرى بارندر، المرجع السابق، ص76.

(41) د. أحمد فؤاد الأهوانى، المرجع سالف الذكر، ص ص77 – 78.

(42) نقلاً عن: يوسف كرم، المرجع سالف الذكر، ص28.

(43) د. أحمد فؤاد الأهوانى، المرجع السابق، ص128.

(44) فؤاد كامل، مدخل إلى فلسفة الدين ودراسات أخرى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1984، ص18.

(45) المرجع السابق، الصفحة نفسها .

(46) د. نجيب بلدى، تمهيد لتاريخ مدرسة الإسكندرية وفلسفتها، دار المعارف، القاهرة، 1962، ص60 وما بعدها .

(47) فراس السواح، الأسطورة والمعنى، ص23.

(48) جفرى بارندر، المرجع سالف الذكر، ص77.

(49) د. نجيب بلدى، المرجع السابق، ص55.

انظر أيضاً: Ninian, Smart, The Religious Experience of Man Kind, p. 331.

(50) نقلاً عن: د. نجيب بلدى، المرجع السابق، ص70.

(51) انظر بشىء من التفصيل، د. عبد الرحمن بدوى، خريف الفكر اليونانى، وكالة المطبوعات الكويت، ودار القلم بيروت – لبنان 1979، ص59.

(52) د. عبد الرحمن بدوى، موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت – لبنان، 1984، الجزء الثانى، ص220.

(53) يعد "هرمس" شخصية عالمية يُعرف بأسماء مختلفة منها: "هرمز" و"اخنوخ" و"إدريس" ... إلخ، وقد أخذ فى تاريخ الشعوب صفات شتى منها شخصية الإله أو النبى أو الطبيب أو الفيلسوف والعالم ..

obeikandl.com

لمزيد من التفصيل انظر: لويس مينار، هرمس (المثلث العظمة أو النبى إدريس)، ترجمة عبدالهادى عباس، دار الحصاد للنشر والتوزيع، سوريا - دمشق، 1998، ص 5.

(54) المرجع السابق، ص538.

(55) جفرى بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص87.

❊ ❊ ❊ ❊

obeikandl.com